

أضواء البيان

@ 311 فأعرض عنها . وفي قوله : { وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا } ، لا أحد من المفترين أظلم ممن افترى على الله كذباً ، وهكذا . والأول أولى . لأنه جار على ظاهر القرآن ولا إشكال فيه . وممن اختاره أبو حيان في البحر . قوله تعالى : { إِنْ زَلَّ النَّاسُ عَنْ عِلْمِي قُلُوبُهُمْ أَكْذِبَةٌ أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِدَاءَ أَذَانِهِمْ وَقُرْآنًا } . ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أنه جعل على قلوب الظالمين المعرضين عن آيات الله إذا ذكروا بها أكنة أي أغطية تغطي قلوبهم فتمنعها من إدراك ما ينفعهم مما ذكروا به . وواحد الأكنة كنان ، وهو الغطاء . وأنه جعل في آذانهم وقراً ، أي ثقلاً يمنعها من سماع ما ينفعهم من الآيات الذي ذكروا بها . وهذا المعنى أوضحه الله تعالى في آيات أخر . كقوله : { خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً } ، وقوله : { أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمِهِ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلَٰبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً } ، وقوله تعالى : { وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بَالًا } خيرة حرجاً بآية مستثوراً وجعلنا على قلوبهم أكنةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِدَاءَ أَذَانِهِمْ وَقُرْآنًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْءَانِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا } ، وقوله : { أَوَلَا لَكُمْ لَذِينِ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّ هُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ } ، وقوله : { مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ } . والآيات بمثل ذلك كثيرة جداً . .

فإن قيل : إذا كانوا لا يستطيعون السمع ولا يبصرون ولا يفقهون ، لأن الله جعل الأكنة المانعة من الفهم على قلوبهم . والوقر الذي هو الثقل المانع من السمع في آذانهم فهم مجبورون . فما وجه تعذيبهم على شيء لا يستطيعون العدول عنه والإنصراف إلى غيره ؟ ا .

فالجواب أن الله جل وعلا بين في آيات كثيرة من كتابه العظيم : أن تلك الموانع التي يجعلها على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم ، كالختم والطبع والغشاوة والأكنة ، ونحو ذلك إنما جعلها عليهم جزاءً وفاقاً لما بادروا إليه من الكفر وتكذيب الرسل باختيارهم ، فأزاع الله قلوبهم بالطبع والأكنة ونحو ذلك ، جزاءً على كفرهم ، فمن الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى : { بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ بُكُوفِهِمْ } أي بسبب كفرهم ، وهو نص قرآني صريح في أن كفرهم السابق هو سبب الطبع على قلوبهم . وقوله : { فَلَمَّا زَاغُوا }

أَزَاغَ اللّٰهُ قُلُوبَهُمْ {